



*Corresponding author:

Dr. Aqeel Kareem Hussein

Imam Al Kadhum College/

Wassit Section

Email:

Aqeelkareem1983@gmail.com**Keywords:**

The Vision, The linguistic
Hijaj, The Hajajian, Al-
Tayyibi, Footnote, Al Kashaf
ARTICLE INFO

Article history:

Received 14 Dec 2022

Accepted 25 Jan 2023

Available online 1 Apr 2023

The Hajajian Vision to the Language of the Qur'anic Text According to Al-Tayyibi (743 AH) in His Footnote on Al Kashaf

A B S T R U C T

The study aims to reread the explanatory heritage, using modern linguistic methodologies as a foundation for access, to determine the efficacy of such ways in questioning the explanatory text and exposing hidden meanings present in its words. The explanation blog has a lot of fine details, cues, and pauses that call for procedural analytical tools that can delve into its depths and look for its psychological essentials. To properly reveal the signals of the heritage that may be used to develop linguistic theories compatible with current discourse analysis theories, this study avoided bending the text's neck and avoiding erroneous projections to preserve the privacy of the explanatory text. Additionally, this study served to correct a research direction some researchers took in their study of the Noble Qur'anic Hajah, which took the Qur'anic text's direction and proved its Hajajietah under the principles of the Hajaj approved by Western linguists. This disrespects the sacred text and goes beyond the bounds of competence.

© 2023 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/>

الرؤية الحجاجية للغة النص القرآني عند العلامة الطيبي (743هـ) في حاشيته على الكشاف

د. عقيل كريم حسين / كلية الامام الكاظم (ع) / أقسام واسط
الخلاصة:

يسعى البحث إلى إعادة قراءة التراث التفسيري قراءةً جديدةً تعتمد المناهج اللغوية الحديثة مرتكزاً للولوج إليها، ومعرفة فاعلية تلك المناهج في استنتاج النص التفسيري، وكشف ما احتواه من معانٍ خفية انضوت في عباراته، فالمدونة التفسيرية فيها الكثير من اللطائف الدقيقة، والإشارات والوقفات التي تحتاج إلى أدوات إجرائية تحليلية قادرة على سبر أغوارها، وتصيّد دررها النفيسة، فجاءت هذه الدراسة للكشف عن تمظهرات الحجاج اللغوي في النص التفسيري، مع التحرز عن ليّ عنق النص، والابتعاد عن الإسقاط الخاطي، للحفاظ على خصوصية النص، ولتكون الدراسة كاشفة حقيقةً عمّا في التراث من إشارات يمكن أن يُبنى عليها نظريات لغوية تحاكي نظريات تحليل الخطاب المعاصرة. فضلاً عن ذلك فإنّ هذه الدراسة جاءت لتصحّح مساراً بحثياً اعتمده بعض الباحثين في دراستهم للحجاج اللغوي في القرآن الكريم، التي أخذت توجه النصّ

القرآني وتثبت حجاجيته وفقاً لمبادئ الحجاج التي أقرها اللغويون العرب، ونعتقد أن مثل هذه الدراسات تكون تجنياً على النص المقدس، وتجاوزاً لحدود الاختصاص، إذ لا بد أن تكون دراسة الحجاج في النص القرآني مبنية على ما ورد في التراث التفسيري، أو تكون في التراث التفسيري نفسه، وهو الأولى في نظرنا، ويكون هدفها إثبات أو نفي وجود إشارات أو نصوص تحاكي أو تماثل ما جاء به المحدثون فيما يخص الحجاج اللغوي، أو أنهم اقتصروا على البرهنة وما تمليه قواعد المنطق.

الكلمات المفتاحية: الرؤية، الحجاجية، الحجاج اللغوي، الطبيعي، حاشية، الكشف

المقدمة:

عني المفسرون كثيراً بالكشف عن حجاج النص القرآني؛ لكونهم معنيين ببيان معانيه والكشف عن مقاصده، والخطاب القرآني بطبيعته خطاب إقناعي تأثيري، غايته التأثير في متلقيه، وحملهم على التخلي عن معتقداتهم التي ورثوها عن أسلافهم، والإيمان بالمعتقد الجديد، بوساطة طرح حجج متسلسلة لإثبات حقائق معينة، وتوظيف أدوات وآليات مختلفة لتحقيق ذلك الهدف، فالخطاب القرآني خطاب حجاجي بامتياز، وقد استطاع التأثير بالكثير من بني البشر، وغير معتقداتهم، بل سحرهم وأخذ بلببهم، وقد أدرك المفسرون ذلك وأولوه عنايتهم، فألفينا طروحات كثيرة عن طرق الحوار الحجاجي، وكيفية تبكيت الخصوم وإلزامهم الحجة، وغيرها من مباحث الحجاج الأخرى، إلا أن سيادة التفكير المنطقي جعلهم يوجهون جلَّ اهتمامهم إلى الحجاج المنطقي الاستدلالي، أما الحجاج اللغوي فلم يأخذ - عند أغلبهم - نصيبه، ولم يحظ بما حظي به الحجاج المنطقي، لكن بعضهم كان دقيقاً بالإشارة إليه، وقد توسع في شرحه، لا سيما المفسرون المتبحرون في علمي المعاني والبيان، فقد ألفينا في كلامهم ما يحملنا على القول بأنهم كانوا مدركين لوجود قوة حجاجية كامنة داخل اللغة، وأن النص اللغوي له وظيفة حجاجية غالباً ما تكون هي القصد الرئيس من وجوده، وما نجده من اهتمام بتعيين المخاطب، ومعرفة أسباب النزول، ومراعاة سياق الحال، واختلاف توجيه معنى النص القرآني تبعاً لاختلاف المخاطبين، ما هو إلا تجليات للبحث الحجاجي الذي يُعنى بالمخاطب وبنوع الخطاب الموجّه إليه، ووسائل التأثير فيه، وهذا ما يحملنا على الدعوة إلى أن تكون دراسة الحجاج في النص القرآني مستندة إلى ما قاله المفسرون، وعلى الباحث تلقف الإشارات أو التصريحات من كتب التفسير، لا الخوض بشرح النص القرآني، وتقسيمه حججاً ونتائج، وعوامل، وروابط حجاجية، وما إلى ذلك، مما يُوقع الباحثين في المحذور، وكثيراً ما وجدنا في الدراسات الخاصة بالحجاج في القرآن الكريم (بحوث أو رسائل أو أطاريح) أنها أخذت تفسّر الآيات القرآنية بناءً على ما فهمته من مبادئ حجاجية، وهذا بجانب للصواب برأينا، فالباحث ليس من شأنه الولوج إلى التفسير القرآني؛ لأن هذا المجال له مختصوه، والمختص لا بد أن يتسلح بمجموعة

من العلوم؛ لكي يلج في غمرات هذا البحر؛ لذا ندعو أن تكون دراسة الحجاج في نصوص أخرى غير النصّ القرآنيّ، سواءً كان نصّاً تفسيريّاً، أو أدبيّاً، أو غيرهما؛ لذلك جاءت دراستنا تدعو الباحثين إلى قراءة التراث التفسيريّ قراءة جديدة، تعتمد على آليات الحجاج؛ لنكتشف ما لو كان في تراثنا إشارات إلى آليات الحجاج اللغويّ كما نظرت له المدرسة الغربيّة، أو أنّهم اقتصروا على البرهنة وما تمليه قواعد المنطق، ففي المدوّنة التفسيرية الكثير من الطروحات التي تتلاقى مع ما طرحه أرباب نظريات التخاطب الحديثة.

-التعريف بمدوّنة البحث وصاحبها:

إنّ حاشية الطيّبيّ على الكشّاف من أجلّ حواشيه، وأطولها وأوسعها شرحاً وتفصيلاً (ينظر: خليفة: دت: 1478/2)، وقد سمّتها مؤلفها بـ(فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب)، والقارئ لهذا السفر العظيم يجد تفسيرين في تفسير واحد، فلم يكن شارحاً لكلام الزمخشريّ حسب، بل كان مفسّراً حاذقاً، يعارض تارةً، ويعضد تارةً أخرى، يقف عند الآيات المختلف في تفسيرها، فيعرض لأقوال المفسرين فيها، ثم يطرح رأيه مرتكزاً إلى ركن وثيق من العلوم الجمّة، له باع طويل في علمي البيان والمعاني، فكان النظم وفنون البلاغة سبيله للاستدلال على تفسير الآيات في كثير من الأحيان، وهذا ما جعل حاشيته تنماز عن باقي حواشي الكشّاف؛ لأنّه يدرك جيداً مقاصد الزمخشريّ، فهما إمامان في علم البلاغة، وهو ما جعل كلامهما ينماز بالعبارة الدقيقة، والقراءة الفاحصة لمعاني النصوص وإشاراتها، بتقصي كلّ ما يتعلق بها من داخل النصّ وخارجه، فضلاً عن مراعاة أحوال المخاطب، للاقتراب من معرفة مقاصد المخاطب، ولأنّ الحجاج بشكل عام هو امتداد للبلاغة القديمة، ووجود الكثير من المشتركات بينهما، وحاشية الطيّبيّ من التفاسير التي غلبت عليها الصبغة البلاغية، بل وجدنا إثارةً للجانب البلاغيّ على الجوانب الأخرى، وقع الاختيار على هذه المدوّنة؛ للكشف عن تجليات الحجاج اللغويّ فيها، لما تضمّنته من طرح يتقارب كثيراً مع المنهج الحجاجيّ في دراسة اللّغة.

أمّا صاحب الحاشية فهو العلامة الحسين بن عبدالله بن محمّد الطيّبيّ، المعروف بـ(شرف الدين الطيّبيّ). ولقبه هذا نسبة إلى بلدة الطيّب، وهي بلدة بين واسط والأهواز، وهو ما نصّ عليه القلقشندي وغيره (ينظر: القلقشندي: 1922م: 4/ 341)، وقد لقبه الكثيرون بالإمام المحقّق العلامة؛ لغزارة علمه، وسعة اطلاعه، وقد وصفه ابن حجر بأنّه كان ((آيةً في استخراج الدقائق من القرآن والسنة)) (العسقلاني: 1969م: 156/2).

-الحجاج اللغوي وآلياته التداوليّة:

تعدّ التداولية المُدمجة أحد أشكال التداوليّة وأهم فروعها، التي أخذت على عاتقها دمج البحث الدلاليّ بالبحث التداوليّ، ورفضت وجود خطوط بينية فاصلة بينهما، فكان جانب البحث فيها هو الجانب التداوليّ المدمج بالدلالة. (ينظر: آل صوينت: 2013م: 200)

يرى أغلب الباحثين أنّ الدرس الحجاجيّ المعاصر قد وضع أسسه اللغويان البلجيكيان شايم بيرلمان Perelman وأولبريخت تيتيكا olbrecht- Tyteca في كتابهما (المطوّل في الحجاج). إذ أكّدا أنّ الحجاج هو (جملة من التقنيات التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بالموضوعات المعروضة عليها، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم) (بو جادي: 2009م: 106) أي: هو أسلوب تنظيميّ في ترتيب الحجج وتوجيهها نحو هدف محدد، يكون غالباً الإقناع والتأثير غايته، والحجة تمثل الدليل على صحة القول أو دحضه. وقد حرصا على جعل الحجاج مستقلاً عن الجدل والخطابة، مفارقاً لهما على الرغم من اتصاله بهما، فهو يتصل بالجدل من الجانب الفكريّ، الذي يكون التأثير في المخاطب هدفه، ومن الخطابة التأثير السلوكيّ، وجمعه بين التأثيرين يعد نقطة الاستقلال منهما والافتراق عنهما (ينظر: حسينيّ: 2020م: 73)

ثم تبعتها محاولات كثيرة انمازت بفضحها ووضوح الصورة فيها، لا سيما محاولات لغويي المدرسة الأمريكيّة بزيادة بورك وتولمين وآخرين، التي نظرت إلى الخطابة والحجاج على أنّهما أدوات فعّالة لتأسيس حقائق ومعارف جديدة، وليست مجرد أدوات إقناع لحقائق ومعارف موجودة سلفاً. (ينظر: رشيد: 2005م: 212)

ثم ظهر توجه لسانيّ جديد في دراسة الحجاج يختلف عن التوجه المنطقيّ السابق، يرى أنّ الحجاج موجود في البنى التركيبية للغة ذاتها، وأنّ «اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهريّة وظيفة حجاجيّة، أي أنّ هذه الوظيفة مؤشّر لها في بنية اللغة، وفي بنية الجمل والأقوال نفسها، فنجدها في الظواهر الصوتيّة والصرفيّة والمعجميّة والتركيبية والدلاليّة والتداوليّة» (العزاويّ: 2006م: 8)، وما الحجاج إلّا علاقات (دلاليّة تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة، ولكنّ هذا العمل محكوم بقيود لغويّة فلا بُدّ من أن تتوفّر في الحجة ق1 شروط محدّدة حتى تؤدي إلى ق2، فالأول حجة، والثاني نتيجة) (المبخوت: د.ت: 360) وهو ما اصطلح عليه بالحجاج اللغويّ، الذي انماز عن سابقه الاستدلاليّ بأنّه «متصل بالعلاقات بين الأقوال في النصوص والخطابات، في حين أنّ الاستدلال متصل بالعلاقات بين القضايا التي نحكم عليها إمّا بالصدق وإمّا

بالكذب)) (الطّلبة: 2008م: 194). وهذا التوجه تمثّل بأعمال اللّغويين انسكومبر وازفالد ديكر في كتابهما (الحجاج في اللّغة)، التي انبنت على خلاصة ما وصلت إليه نظرية أفعال الكلام، التي ترى أنّ ((القول بمعنى ما فعل شيء وعمله)) (أوستن: 1991م: 111) فجاءت نظريتهما تطويراً لنظرية الأفعال الكلامية بإضافتهما فعلين لغويين هما: الاقتضاء، والحجاج. فهما ينظران إلى اللّغة على أنّها تتحقق أفعالاً لغوية، وليست مجرد وصف لحالة الأشياء في العالم، وأنّ ((القيمة الحجاجية لقول ما، ليست في حصيلة المعلومات التي يقدمها فحسب، بل إنّ الجملة قد تشتمل أيضاً على عناصر صوتية وبلاغية، من تعابير وصيغ، فضلاً عن محتواها الإخباري، تعمل كلّها على إعطاء توجيه حجاج للقول، ومن ثم توجيه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذلك)) (حسيني: 2020م: 74)، ومن ثم فإنّ أغلب كلمات اللّغة العادية نستعملها بشكل جيد، ونعرف وجهتها الحجاجية (ينظر: العزاوي: 2006م: 37)؛ لذا يُعدّ البعد الحجاجي بُعداً جوهرياً في اللّغة؛ لأنّ كلّ خطاب يسعى إلى إقناع كلّ من يُوجّه إليه.

يستمد الحجاج قوته وفاعليته من المرجعية المرسلة له؛ لأنّ المتكلّم (المُحاجج) يهدف إلى التأثير في المخاطب، أو الجمهور لتغيير سلوك معين، أو حمله على تبني وجهة نظر معينة، وعلى المتكلّم أن يراعي استعداد المتلقي لقبول ما يُلقى إليه من حجج، ومن الضرورة أن تكون تلك الحجج منطوية على عناصر مقبولة لدى طرفي الخطاب (ينظر: الولي: 2011م: 12)، فأغلب أقوالنا وعبارتنا ((التي ننتجها في حياتنا اليومية لها طابع حجاجي واضح، ولها قوة حجاجية بارزة نسعى من خلالها إلى التأثير في المتلقي، وإلى دفعه لتبني رأي ما، أو الاستجابة لطلب معين)) (العزاوي: 2006م: 133)؛ لذا نجد أنّ تعريف جون ميشال آدم J.M. Adam للحجاج مبني على الرؤية الوظيفية له، وذلك بقوله: ((الخطاب الحجاجي موجه للتأثير على سلوكيات المخاطب أو المستمع وذلك بجعل أيّ قول مدعم صالحاً أو مقبولاً (النتيجة) وذلك بمختلف الوسائل بالنظر إلى قول آخر (الحجة- المعطاة- الأسباب)) (زهرة: 2010م: 184).

إنّ مفهوم الحجة وفقاً لرؤية ديكر ليست مجرد أقوال في داخل الخطاب، وإنّما هي عنصر دلاليّ يقدمه المنشئ لصالح عنصر دلاليّ آخر، ولا تتحدد ضمن شكل واحد، وإنّما تأتي على شكل فقرة أو نصّ، أو مشهد طبيعيّ، أو غير ذلك، وقد ترد الحجة ظاهرةً أو مضمرةً، وكذا الحال بالنسبة للنتيجة (ينظر: العزاوي: 2010م: 59)، ذلك أنّ الاعتبارات السياقية، والمعارف المشتركة لدى أطراف الخطاب، عاملان رئيسان في إظهار الحجج والنتائج أو إضمارها، فقد تلجأ الحجة ((إلى الإضمار لوجود معارف مشتركة بين المستدلين بها، ... نذكر من المضمرة العامة أنّ المتكلّم يجعل من المستمع نظيره في الحقوق والواجبات، ... ونذكر من المضمرة الخاصة كلّ ما تعلق بتصورات المتكلّم والمستمع، بعضهما عن بعض، من حيث معارفهما أو آراؤهما أو مبادئهما أو قيمتهما)) (عبدالرحمن: 1998م: 256). أمّا النتائج فهي في الغالب تكون مضمرة وتفهم

من سياق الكلام (ينظر: العزاوي: 2006م: 63)، وقد تتعدد الحجج في الاستراتيجية الحجاجية، وتكون متفاوتة في القوة الحجاجية، وتبقى وظيفتها الأساس خدمة النتيجة الواحدة، لكن بدرجات متفاوتة.

إذاً الحجاج حوار هدفه الإقناع، لا الإكراه على الاقتناع، وأداته الرئيسية هي اللغة، فهو (كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها) (عبدالرحمن: 1998م: 226)، وأيّ محاولة للتحكم في الإنسان أو التأثير فيه يكون بواسطة اللغة، وهو ما يُدعى حجاجاً، وأيّ تأثير في الإنسان بأداة غير اللغة فهو ليس من الحجاج بشيء. (ينظر: الولي: 2011م: 12).

المفاهيم الأساسية لنظرية الحجاج اللغوي:

تقوم النظرية الحجاجية في جوهرها على مجموعة من المفاهيم، وهي مفاهيم أساسية في التصور اللساني الحجاجي، ولا بُدّ من الوقوف عند كلّ واحد منها بشكل مختصر، وبيان وظيفته التداولية داخل الملفوظات؛ لكونها تساعد في إعطاء تصور كامل عن نظرية الحجاج اللغوي، ولأهميتها في الدراسة الإجرائية التي ستكون حاشية الطيّبي ميداناً لها.

أولاً: الروابط الحجاجية: هي عناصر لغوية وظيفتها الربط بين حجتين أو أكثر جرى سوقهما في إطار الاستراتيجية الحجاجية نفسها، أو بين حجة ونتيجة، وهي تُسند لكلّ قولٍ دوراً محدداً داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة، وهذه العناصر تتمثل في اللغة العربية (بـ، بل، لكن، حتى، لاسيما، إذن، لأنّ، حتى، بما أنّ، إلّا، تقريباً) (ينظر: رشيد: 2004م: 236، والعزاوي: 2006م: 26) وغيرها، مما يصدق عليه وسم الرابط.

إنّ الروابط الحجاجية مسؤولة عن اتساق عناصر بناء النصّ الحجاجي، وترابط الحجج فيه، بشكل يجعله نصّاً تفاعلياً، ومن ثم تنشأ العلاقات الحجاجية داخل النصّ، والتي بدورها تتعدد بتعدد الخطابات، وتختلف باختلاف منشئها ومتقبلها، فتكون علاقة سببية، أو تنابعية، أو علاقة اقتضاء، أو علاقة استنتاج؛ ليتحقق الهدف من وجود ذلك النص. (ينظر: حسيني: 2020م: 74-76).

ويمكن تصنيف الروابط الحجاجية حسب وظيفتها داخل الملفوظ الحجاجي إلى صنفين، أولهما: الروابط التي تقوم بالربط بين الحجج، والآخر: الروابط التي تربط بين الحجة والنتيجة، وما تصلح للقيام بوظيفتها في الصنف الثاني لا تصلح في الغالب للقيام بوظيفتها ضمن الصنف الأول.

ثانياً: العوامل الحجاجية: عناصر لغوية وظيفتها القيام بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون للقول، أو بتعبير آخر تحدد النتيجة بشكل كبير، وهذه العوامل من قبيل أدوات القصر وما ماثلها في الوظيفة (ينظر: العزاوي: 2006م: 29).

ثالثاً: السُّلمُ الحجاجي: يعمد منشئ النصّ إلى ترتيب حججه بطريقة تتناسب مع ما يقصده، وتحقق أهدافه، متوخياً في ترتيبه الحجج قوتها وفعاليتها، وهذه الحجج تربطها علاقة ترتيبية تُدعى السُّلمُ الحجاجي، فالسُّلمُ الحجاجي هو فئة حجاجية موجّهة، ويتسم بأنّ كلّ قول في درجة ما من درجاته يكون القول الذي يعلوه حجة أقوى بالنسبة إلى النتيجة، وكلّ قول يقع في أدنى السُّلمُ يؤدي مع الأقوال التي تعلوه إلى النتيجة وليس العكس، وهذا السُّلمُ تحكمه مجموعة قوانين أهمها، قانون الخفض، والقلب، وتبديل السُّلمُ (ينظر: العزاوي: 2010م: 61-63).

رؤية الطيبيّ لآلية بناء الحجاج اللغوي:

قبل الولوج إلى النصّ التفسيريّ وعرض ما تضمّنه من مظاهر للحجاج اللغويّ لا بدّ من الإشارة إلى رؤية صاحب التفسير لكيفية بناء الملفوظات، وتوجيهها الوجهة الحجاجية التي يبغها المتكلم، إذ وجدنا في مقدّمة التفسير أنّ الطيبيّ لم تغبّ عنه الإشارة إلى أنّ اللُّغة حاملةً لوظيفة الحجاج بشكل ذاتيّ وجوهريّ، فضلاً عن الإشارة إلى كيفية بناء الحجاج اللغويّ، وإنّ اختلفت المصطلحات لكن المضامين جاءت متقاربة أو تكاد تكون مطابقةً لما طرّح في الدرس اللسانيّ الحديث، فلنتأمل ما دوّنه في شرحه لعبارة الزمخشريّ (تلقيح بنات الفكر)، إذ قال: (قوله: (بنات الفكر)، قالوا: هي المقدمات التي إذا رُكبت تركيباً خاصاً أدت إلى المطلوب ... أو يُقال: إنّ بنات الفكر هي النتيجة، ومنه بُنيت الشقّة للكلام. وفي قوله: "تلقيح بنات الفكر" دقيقةٌ جليّة، وهي: أنّ الأصل في التلقيح بعد الاستعارة أن يُطلق على استعمال الشخص القوّة المُفكّرة بأن يُرتب أموراً حاصلّة في الذهن، ليتوصّل بها إلى تحصيل ما ليس بحاصل، والمحصول منه بعد الترتيب يُسمى نتيجةً، وفِعْلُهُ تَلْقِيحاً)) (الطيبيّ: 2013م: 666/1). فالنصّ يشير بوضوح إلى كفاءة المتكلم اللغويّة في ترتيب الألفاظ المناسبة للمعاني التي تختلج في ذهنه، ووضعها في تراكيب منفق عليها ضمن بيئته اللغويّة، ثم تحويلها إلى ملفوظات لغويّة في الخارج، مراعيّاً في اختيار ألفاظه ما يُناسب مدارك المخاطب، معتمداً المقدمات المقبولة لديه، وهذه الألفاظ تُرتب بالطريقة التي تُحقّق هدفه من تلقّظه، والذي عبّر عنه بـ(تحصيل ما ليس بحاصل) وهو ما يصطلح عليه التداوليون بالفعل الناتج عن القول، أي: الإنجاز المتحقق من القول، وهنا إشارة واضحة إلى الفعل الكلاميّ وكيفية تكوينه في ذهن المتكلم، وما ينتج عن أداء ذلك الفعل في الواقع، وقوله: (إذا رُكبت تركيباً خاصاً أدت إلى المطلوب) وكذلك قوله: (المحصول منه بعد الترتيب يسمى نتيجة) إشارة إلى أنّ الهدف من الخطاب لا يمكن تحقيقه إلّا إذا استطاع المتكلم ترتيب حججه في مسار حجاجيّ مناسب لتحقيق ذلك الهدف المنشود، فضلاً عن أنّ الملفوظات تحمل بصفة ذاتية وظيفة حجاجية لكنّها لا تكون مؤثرة وفاعلة إلّا إذا رُتبت بالطريقة المثلى، وضُمّنت الأدلّة المناسبة، لذلك قال في موطنٍ آخر: ((الكلام إذا بُيّن وزيد في بُرْهانه؛ تَمَكَّنَ عِنْدَ السامِعِ وأَخَذَ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ)) (الطيبيّ: 2013م: 12 / 54)،

وهي إشارة إلى التأثير الحجاجي للمفوضات في سامعها، وهذا يقارب كثيراً ما أشرنا إليه فيما سبق بأن نظرية الحجاج اللغوي قامت على خلاصة ما وصلت إليه نظرية أفعال الكلام، التي ترفض أن تكون اللُّغة مجرد وسيلة لتمثيل الواقع أو الذهن، بل ترى أن تَلْفُظَ الإنسان هو فعلٌ لغويٌ ينهض على نظام شكليٍّ دلاليٍّ إنجازيٍّ تأثيريٍّ، وأنَّ اللُّغةَ تحملُ بصفةٍ ذاتيةٍ وجوهريَّةٍ وظيفيةً حجاجيةً، والحجاج هو أحد المعاني المُضمرة داخل القول ويمثل الوسيلة الأجدى للإقناع. (ينظر: العزاوي: 2006م: 8)

مظاهر الحجاج اللُّغوي في حاشية الطيبي:

إنَّ خصوصية النصِّ القرآني وتعدُّد دلالاته تجعل منه نصّاً قابلاً لأن يُقرأ قراءات متعددة، وتُفهم منه مقاصد مختلفة، على اختلاف الأزمان والأمكنة، وهذا ما جعل حركة التفسير مستمرة على مرِّ العصور، فكلُّ مفسر قراءته الخاصة، وفهمه واستدلالاته، وهذه الخصوصية للنصِّ القرآني تقتضي تجديد الفهم والتلقي للخطابين القرآني والتفسيري، فهماً يثري دلالات الخطاب القرآني بما يتناسب والتطور المعرفي، مع التقيد بالحفاظ على خصوصية كلِّ من الخطابين، ولاعتقادنا بأنَّ النظريات اللُّغوية الحديثة يمكن الاستعانة بها لتحقيق ذلك الهدف، وفهم الكثير من طروحات المفسرين الحاذقين، وتلقف إشاراتهم الدقيقة في تفاسيرهم، فقد وقع اختيارنا على نظرية الحجاج اللُّغوي، لقراءة نصِّ تفسيريٍّ مميز، متمثلاً بحاشية الطيبي على الكشّاف الموسومة بـ(فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب)، وتمثّلات الحجاج اللُّغوي عند الطيبي في حاشيته نجدها في تفسير سورة الفاتحة، فبالرغم من أنَّها تجري على ألسن المسلمين في كلِّ يوم أكثر من مرة، وهي موضع عناية المفسرين لفضلها وشرفها، لكنَّ الكثير منهم لم يلتفت إلى القيمة الحجاجية التي تحملها آيات هذه السورة المباركة، وكيف أنَّها تسلسلت في تقديم الحجج التي تخدم النتيجة وتؤدي إليها، والتي يُقصد من خلالها إقناع المتلقي، أو زيادة قناعاته، فالعبادة متى ما اقترنت بالعقل كانت أثبت وأقوى في النفس، فالقارئ لكلامه عن تفسير الفاتحة الذي نصُّه: ((إنَّ في تعقيب هذه الصِّفاتِ للحمْدِ إشعاراً بأنَّ الحمْدَ إنّما استحقَّه لما أنَّه مُنصِّفٌ بها كما صرَّح به في قوله: "وهذه الأوصافُ دليلٌ على أنَّ مَنْ كانتْ هذه صِفَاتُهُ لم يَكُنْ أحدٌ أحقَّ منه بالحمْدِ والنَّناء". وقد تقرَّرَ في الأصول: أنَّ في اقتران الوصفِ المُناسبِ بالحكمِ إشعاراً بالعلِّيَّة)) (الطيبي: 2013م: 1/726). يجدُّ أنَّ الآية الأولى وهي (الْحَمْدُ لِلَّهِ) تمثل لدى الطيبي الغاية المقصودة -النتيجة- التي يهدف منشئ الخطاب إلى حمل المتلقي على الاعتقاد بها وتأديتها، وأنَّ الآيات التي تلتها المتضمنة لصفات الله تعالى ما هي إلا أدلة وحجج متسلسلة بشكل يخدم تلك النتيجة، فالآية حينما خصصت الحمد لله تعالى، بمجيء الخبر مقترناً باللام، -وهو مظهر حجاجي تمثل بهذا التركيب- جاءت الآيات التي بعدها لتعلّل سبب هذا التخصيص، أو قل: إنَّها إجابة عن تساؤل خفيٍّ مفاده: لم كان الحمد لله وحده؟ فتأتي الحجج على الشكل الآتي:

لأنَّ صفته (رَبِّ الْعَالَمِينَ) حج 1 و (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) حج 2 و (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) حج 3، وهنا نلاحظ نشوء علاقة حجاجية بين هذه الحجج والنتيجة، قد أُضْمِرَ الرابط الحجاجي فيها، تسير باتجاه حجاجي واحد، واختيار تلك الصفات لله تعالى دون غيرها؛ لكونها هي الصفات المناسبة لذلك الحكم، والمشعرة بتلك العلية لله (جلَّ وعلا)، وكلَّ صفة من هذه الصفات يمكن للمنشئ أن يحاجج بها، فضلاً عن تضمينها المعاني ذات الفعالية التأثيرية في المتلقي، وإليه أشار بقوله: «فانظرُ إلى حُسنِ هذا الترتيبِ السريِّ، وهذا النظمِ الأنيقِ تُدهشُ منه؛ وذلك أنَّ (رَبِّ الْعَالَمِينَ) إذنُ بالتصرُّفِ التَّامِّ في الدُّنيا مُلكاً وتربيَةً، و (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) دلٌّ على ذلك في العُقْبَى تَسْلُطاً وقَهراً، وتوسيطُ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بينهما مُنادٍ بترجيح جانبِ الرَّحْمَةِ، وأنَّه تعالى رحمنُ الدُّنيا ورحيمُ الآخرة» (الطبيبي: 2013م: 1/ 735). وهنا إشارة دقيقة من الطبيبي إلى تطبيق قانون حجاجي يُسميه أهل الحجاج بـ(قانون الأجدى)، ذلك «أنَّ وحدات اللُّغة تتفاوت في درجات التعبير عن المقصود، فكلَّ صيغة تحمل تأثيراً في المتلقي تختلف عن صيغة أخرى، فاختيار المتكلم لألفاظه نابع من غايات حجاجية» (محمود، وباليساني: 2019م: 331). فالصفات التي نعت الله (جلَّ وعلا) نفسه بها في كتابه الكريم كثيرة، لكنَّ اختيار هذه الصفات هنا لقصد حجاجي تمثل بمناسبتها لذلك الحكم، وهي الأجدى والأكفاً لإقناع المخاطب بأنَّ مَنْ أُمِرَتْ بتقديم الحمد له، هو صاحب تلك الأوصاف العظيمة، ومن كانت له تلك الصفات فحريَّ بمن عرفها أن يخصَّه بالحمد والشكر، فضلاً عن ذلك فالنصَّ يشير إلى أنَّ ترتيب هذه الأوصاف بدأ برؤية الله تعالى للعالم المحسوس مراعاة للمستوى المعرفي للمتلقي، فإيمان المتلقي بالأشياء المحسوسة يكون أسرع من إيمانه بغير المحسوسة، ثم ثنى بما يطمئن قلب السامع بالرحمة، لينتقل به إلى الوصف الأخير بأريحية نفسية يمكن أن يتلقاه ويتقبله دون رفض مباشر للتصديق بذلك الوصف؛ لأنَّه شيء غير محسوس، ولم يطرُق أسماعه أن ما بعد الموت هناك يوم يقف فيه الخلق أجمعون للحساب بين يدي الله تعالى، وهذا الانتقال من المحسوس إلى اللامحسوس هو آلية حجاجية ناجعة ومؤثرة، وهذا يتقارب كثيراً مع القاعدة الحجاجية التي تنصُّ: على أنَّ الحُجج المتساوقة في موضوع معين لا بدَّ أن تتفاوت في قوة إقناعها تبعاً لنوع المخاطب، وظروفه، والكم المعرفي، والظروف المحيطة بسياق التلقي (ينظر: العزاوي: 2006م: 20).

وبعد اشتغال المقطع الأول من السورة على الغاية المقصودة، والحجج والأدلة المؤدية إليها، يرى الطبيبي أنَّ المقطع الثاني جاء بوساطة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} بياناً لتأثير تلك الحجج بمتلقي الخطاب حتى تحوّل من متلقٍ للحجج إلى مقرٍّ بما تريد الحجج إقناعه به، وذلك بقوله: «لما حصل من إجراء الأوصاف على مَنْ يَسْتَحَقُّ الحَمْدَ على سبيلِ العَيْبَةِ تَمَيُّزُ الموصوفِ. ومن التميُّز استحقاؤه الثناء وغاية الخضوع بناءً على ترتُّب الحكم على الوصف، أريد مزيد ذلك، فخطب ذلك التميُّز ليتقوى ذلك التميُّز السابق فيزيد ذلك الاستحقاق؛ لأنَّ مقام المشاهدة لا يحتمل ما يحتمله مقام المُعَايِنَةِ من

الايهام، ففرقنا من الحمد إلى العبادة والاستعانة مع رعاية معنى الاختصاص^(الطبيبي: 2013م: 1/ 748)، فبيان أثر الحجج في قناعات المتلقي، وهذا التحول بإخلاص العبادة لمنشئ الخطاب، يمثل الفعل الناتج عن القول في أدبيات البحث التداولي، وهذا يعضد القول بأن نظرية الحجاج اللغوي قامت في أساسها على ما وصلت إليه نظرية الفعل الكلامي كما مر بنا، ويمكن القول بأن العلاقة الرابطة بين النظريتين هي علاقة عموم وخصوص.

وفي تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} البقرة: 21- 22. نجد أن الطبيبي يشير إلى أن هناك نتيجة أعقبت مجموعة الحجج في الآيتين الكريميتين، تمثلت بالأمر بعبادته (جلّ وعلا) وإثبات الوحداية له، إذ قال: (كأنه قال: يا أيها الناس، اعلموا أن لكم معبوداً يجب عليكم عبادته؛ لأنه الذي خلقكم وخلق آباءكم، وجعل لكم مظلةً ومقلّةً، وأنعم عليكم بإنزال المطر وإخراج الثمر؛ فإذا لا تجعلوا له شريكاً) (الطبيبي: 2013م: 2/ 313). نلاحظ في هذا النصّ دقّة كبيرة في تعبير الطبيبي عما تضمنته الآيتين الكريميتين من حجاج لغوي، لذا جاء بالتعليل الذي يتصدر إجابة سؤال مفترض من متلقي الخطاب، وهو ما صرح به في موطن آخر بقوله: (فكأن سائلاً حين سمع قوله (اعبدوا ربكم) سأل: ما بالنا نخضع بالعبادة وأن لا نُشرك به شيئاً، فقيل: لأنه هو الذي... الخ) (الطبيبي: 2013م: 2/ 308). وهذه إشارة واضحة وصريحة إلى حجاجية النص؛ لأنّ (إثارة السؤال - وهذه خاصية الخطاب- تعني ممارسة الحجاج، وطرح السؤال يفترن باحتمال طرح الرأي المخالف... وإذا فرض السياق التصدي لسؤال ما، فإنّ الحجة تكون بمثابة الجواب الذي يقوم مقام النتيجة بالنسبة للسؤال) (مايبر: 2010م: 1/ 371). ثم أنّ هذا التعليل الوارد في كلامه يشير إلى أنّ العلاقة الحجاجية بين النتيجة ومجموعة الحجج المذكورة هي علاقة تعليلية تفسيرية، والاسم الموصول (الذي) يمثل الرابط الحجاجي بينهما، إضافة إلى الوظيفة النحوية والدلالية التي يضطلع بها داخل النصّ، ثم ختم النصّ برابط حجاجي آخر وهو (إذاً) تلتته نتيجة أخرى متعلقة بالأولى، أو قل: مكّمة لها، لأنّ أصل العبادة التوحيد، فضلاً عن أنّ بعض المشركين كانوا يتخذون من آلهتهم التي يعبدونها سبيلاً للتقرب إلى الخالق (جلّ وعلا)؛ لذا ارتبطت العبادة بعدم الاشراف، حتى يعرف العبد أنّ العبادة المطلوبة هي الخالصة لله تعالى وحده.

وبما أنّ السبيل الأجدى للتأثير الحجاجي في المتلقي هو استعمال ما يسمى بحجج المشاركة، التي تعتمد على مبدأ المشاركة الذي يقوم على الافتراضات المسبقة (ينظر: تابتي: 2007م: 295)، فقد أشار الطبيبي إلى تضمن الآيتين الكريميتين هذا النوع من الحجج بقوله: (ولما أنّ القيام بالشكر والعبادة مسبوق بمعرفة المنعم والمعبود أحتيج إلى التفكّر والنظر المؤدي إلى تلك المعرفة، وأول شيء يقع نظر المكلف إليه مقره ومكانه،

ثم بعدَ هذا النظر إذا ساعدهم التوفيقُ بأن يأخذوا في العُروج من السُّفليات إلى العُلويات وآثارها، فيُنظروا إلى السماء التي هي كالسَّقْفِ لمُفْتَرَشِهِمْ ... ثم يَنْظُرُوا بعدَ النظر إليها إلى ما يحصلُ من ازدواجها مع مُفْتَرَشِهَا من أنواع الثمار والنِّبات ... لينضمَّ إلى دليلِ الأفاقِ دليلُ الأنفسِ (الطبيبي: 2013م: 301/2). فمستقرُّ الإنسان دليلٌ محسوسٌ، يمثل معرفة مسبقة لدى المتلقي (افتراض مسبق)، وكذلك السماء فهي من الآيات المرئية مع تكوينها الإعجازي المتمثل بارتفاعها من دون عمد، وهنا الانتقال المنطقي الترتيبي من حُجة إلى أخرى، والتدرُّج من الأدون إلى الأعلى فالأعلى، وهو ما يحصل من نزول المطر إلى الأرض، وخروج النبات منها، تمثل تقنيات إقناعية تأثيرية، فالتدرُّج إلى الشيء العظيم يكون سبباً لموانسة المرء به وتقبُّله له، كما أنَّ المفاجأة به سبب للاستيحاش والنفور، وكلُّ تلك الحجج هي دلائل ظاهرة تهدف إلى إيصال المتلقي إلى معرفة المُوجد لكلِّ تلك الموجودات على اختلافها، ولعلَّ هذه الحجج هي أكثر أنواع الحُجج إقناعاً للمخاطب، لذا ذهب بعضهم إلى أنَّ الحجاج في جوهره قائمٌ على المعرفة الشائعة، وينطلق من المعارف المشتركة. (ينظر: العزاوي: 2010م: 36)

ومن المواطن التي كشف الطبيبي عن حاجية لغة النصِّ القرآني فيها ما ذهب إليه من أنَّ جمل صلة الموصول التي ذكرت في قوله تعالى: { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا } {الإسراء: 111} ما هي إلا ملفوظات اضطلعت بدور حجاجي داخل سياقها اللغوي، إذ مثلت الحجج التي توصل إلى النتيجة المتمثلة بقوله تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)، والرابط بينها وبين النتيجة هو الاسم الموصول (الذي)، إذ دَوَّن: (لذلك أنَّ مَنْ اتَّخَذَ وَلَدًا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِمْسَاكِ لِأَجْلِهِ، وَمَنْ تَمَّ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: "الوَلَدُ مَجْبُتَةٌ مَبْخَلَةٌ"، وَمَنْ كَانَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مَا يَتَصَرَّفُهُ، فَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ التَّصَرُّفِ التَّامِّ، وَمَنْ احْتَاجَ إِلَى نَاصِرٍ يَدْفَعُ عَنْهُ الذُّلَّ، كَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ عَنِ الْغَيْرِ؟ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْزَعٌ عَنِ كُلِّ هَذِهِ الْمَوَانِعِ، فَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِبْلَاءِ كُلِّ نِعْمَةٍ، فَلِذَلِكَ يَسْتَحِقُّ كُلَّ الْحَمْدِ) (الطبيبي: 2013م: 399/9-400). فالنتيجة التي ترتبت على تلك الحجج هي الأمر بحمد الله تعالى، ولكون الحمد هو الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها، وهو فعل اختياري لا يُجبر العبد عليه، لذا يكون الإقناع هو الوسيلة الأجدى لحمل المخاطب على تأديته، وهذا الإقناع لا يتحقق ما لم تكن هناك مجموعة من الحجج تنتظم ضمن مسار حجاجي، قائمة على علاقة حاجية تربطها مع النتيجة، ولا بدُّ أن تكون مناسبة للحكم المُترتب عليها، كي تكون تلك الحجج مقدمات صحيحة للتسليم بالنتيجة؛ لذلك تتبع الطبيبي تلك الحجج، ووقف عند كلِّ واحدة منها؛ ليبين أنَّها العلل المناسبة للنتيجة المُترتبة عليها، فعدم اتخاذ الولد لما يستتبعه من إمساك عن بعض الأفعال لأجله، والتفرد بالملك من دون شريك يجعله قادراً على التصرف التام دون الأخذ برأي الشريك، فضلاً عن استغنائه عن أي ناصر أو معين، وتنزُّه الله (جلَّ وعلا) عن هذه الموانع تجعله الوحيد القادر على إِبْلَاءِ النعم على العباد، فهو

المنفرد بالإيجاد، المنعم على الإطلاق، وما عداه محتاج فقير، ومنعمٌ عليه، ولكون الحمد هو ثناء على النعمة فلا يستحقه إلا مَنْ كان قادراً على إيلائها، من دون الحاجة إلى ما يُعاونُه ويقوِّيه، وبذلك تكون الحجة قائمة على المخاطب بأداء فعل الحمد لله تعالى، وقد اضطلع الاسم الموصول بوظيفة الربط الحجاجي بين مجموعة الحجج والنتيجة المتمثلة بالحمد، وهذا يبين لنا أنَّ الحجاج ليس طارئاً على اللُّغة، أو أنَّه قيمة مضافة لها، بل هو وظيفة أساسية ملازمة لكل نشاط لغوي، وهذا ما أكَّده أرباب نظرية الحجاج اللُّغوي، فهم يرون أنَّ «القيمة الحجاجية لمفوض ما ليست نتيجة المعلومات المتضمنة فيه فقط، بل إنَّه قد توجد في الجملة مورفيمات أو تعابير أو صيغ تعطي للمفوض توجهاً حجاجياً يقود المخاطب إلى ذلك الاتجاه أو ذلك، بغض النظر عن حملتها الإخبارية» (طلحة: 2008م: 107). وإنَّ كُنَّا نتحفظ على هذا الرأي بما يذهب إليه من التعميم على الملفوظات جميعها، فنحن لا نرى أنَّ الملفوظات جميعها لها توجه حجاجي؛ لأنَّ الحجاج مرتبط بقصد المرسل، وإذا لم يقصده المرسل فإنَّ تلك الملفوظات لا تحمل الصفة الحجاجية.

القيمة الحجاجية لأسلوب القصر:

يُقصد بالقيمة الحجاجية أنَّها نوع من أنواع الإلزام للمرسل بالطريقة التي يجب اتِّباعها لضمان استمرارية ونمو الخطاب حتى تحقيق غايته التأثيرية، فضلاً عمَّا تمثله من سلطة معنوية للفعل الكلامي ضمن سلسلة الأفعال المنجزة لتبليغ المتلقي فكرةً ما. (ينظر: هجرس: 2013م: 31) والقصر إحدى صور التوكيد الذي يمثل أحد أصناف الفعل الكلامي، وإحدى أهم التقنيات الحجاجية التي يستند إليها المتكلم لمواصلة حجاجه، لذا ذهب كلُّ من فان إيميرن، وجروتندورست إلى أنَّ الأفعال الكلامية (تسهم بأدوار مختلفة في الحجاج، إذ يضطلع كلُّ منها بدور محدّد في الحجاج بين طرفي الخطاب، وتترتب الأفعال حسب مقدار الاستعمال، فالمرسل يستعمل أغلب أصناف الفعل التقريري ليعبّر عن وجهة نظره ... كما يستعمله للمواصلة في حجاجه من خلال التأكيد أو الادّعاء) (الشهري: 2004م: 481-482)، ولكون التوكيد متعلقاً بالمخاطب، فقد اختلفت أساليبه، وتنوعت طرقه باختلاف مقامات الخطاب، ولعلَّ أسلوب القصر من أكثر صوره ارتباطاً بالمتلقي، وتمثل أدواته العوامل الحجاجية الفاعلة في تحقيق هدف الخطاب، وهذا الأمر كان محل عناية أهل اللُّغة عامّة، وأهل التفسير خاصة، فوجدنا في حاشية الطيبي ما يُلفت النظر في كيفية التعاطي مع أسلوب القصر، وتعيين الوظيفة الحجاجية التي يضطلع بها داخل الخطاب القرآني، بوساطة تعيين نوع المخاطب المراد إقناعه، أو ردِّ إنكاره، أو دفع التوهم عنه، والرأي لما دَوَّنه عن أسلوب القصر يُدرك تلك الرؤية العربية التي يمكن وصفها بالتداولية لوظيفة إحدى صور التوكيد، إذ وجدنا أنَّ نظرتَه لحجاجية أسلوب القصر، والدور الوظيفي الذي تقوم به أدوات القصر بعدها عاملاً حجاجياً داخل النصّ، تُقارب كثيراً ما دَوَّنه أرباب النظرية الحجاجية، لذا بيّن في أكثر من موطن الفرق بين الهدف الحجاجي للمفوضات المشتملة على أدوات القصر

والمفوضات الخالية منها، وهذا ما يمكن تلمسه بوضوح في قوله: (فَاتَكَ إِذَا قُلْتَ: كَانَ زَيْدٌ أَخَاكَ، أَوْ: كَانَ زَيْدًا أَخُوكَ، وَجَدْتَ الْفَرْقَ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ يُقَالُ لِمَنْ عَرَفَ زَيْدًا، لَكِنَّهُ مَتَرِدُّ: هَلْ هُوَ أَخُوهُ أَمْ لَا، وَالثَّانِي لِمَنْ عَرَفَ أَحَا لَهُ، لَكِنَّهُ شَاكٌّ فِي أَنَّهُ زَيْدٌ أَمْ غَيْرُهُ. فَإِذَا أُثْبِتَ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، أَشْرَتْ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ التَّرَدُّدَ ارْتَقَى إِلَى الْإِنْكَارِ، فَأَنْتَ تَقْصِدُ رَدَّهُ إِلَى الصَّوَابِ بِمَا أَمَكَنَّ لِكُونِ "مَا" وَ"لَا" إِنَّمَا يُتْلَقَى بِهِمَا مَنْ يُصْرُ عَلَى الْإِنْكَارِ)) (الطبيبي: 2013م: 327/6). فالواضح من النص أن الفرق بين المفوضات المذكورة متعلق بمعارف المخاطبين، والمقامات التي ترد فيها، وتعطي في الوقت نفسه صورة واضحة عن القيمة الحجاجية لكل ملفوظ، فبدا لنا أن القيمة الحجاجية للملفوظ الأخير الذي اقترن بالنفي والإثبات أعلى منها في الملفوظين الأول والثاني، إذ أن المتكلم في الملفوظين الأولين يحاول تنبيه المخاطب إلى معارفه السابقة وتأكيدا في ذهنه محاولا إقناعه، أما الملفوظ الأخير فيحاول المتكلم ردّ المخاطب عن إصراره على الإنكار؛ لذا فالتأثير بالمتلقي المتردد وإقناعه أهون منه مع المنكر، وهذا ما يجعل المتكلم يتوخى الأسلوب الحجاجي الأقوى مع المنكر، فيلجأ إلى ما تعطيه أدوات القصر من قوة للتراكيب التي تقيد محتواها القضوي، ذلك أن «القوة الحجاجية الكامنة في صلب الأقوال التي هي عبارة عن أدوات وعوامل تتفاوت في قوتها الحجاجية تقوم بتوجيه الأقوال نحو غايتها، فيكون الاهتمام بهذه العوامل أو الموجهات للأقوال أكثر من الأقوال نفسها»). (الزاملي: 2020م: 181) وهذا يعكس بشكل جلي القيمة الحجاجية لأسلوب القصر داخل الخطاب الحجاجي، قياساً بالمفوضات الأخرى.

ولعلنا نجد أن هذه النظرة الوظيفية أكثر وضوحاً عند الطبيبي في تفسيره لقوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ} {البقرة: 173} بقوله: «وإنما تقرير هذا الوجه القصر، فاعلم أن القصر لا بد فيه من سبق خطأ من المخاطب مشوب بصواب، وأنت تريد تحقيق صوابه ونفي خطئه» (الطبيبي: 2013م: 198/3)، وهنا إشارة واضحة إلى أن أسلوب القصر، هو أسلوب يندرج ضمن سياق استدلال يمكن عدّه حجة يقدمها المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر يُسمى (نتيجة) تتمثل بالتأثير في المخاطب وتغيير اعتقاده، فهو بالإضافة إلى أنه فعل كلامي تقرير، هو تركيب حجاجي هدفه الإقناع والتأثير، لكن يبقى تحديد نوع المخاطب الذي يستهدفه المتكلم عاملاً رئيساً في تحديد غاية أسلوب القصر وهدفه، لذا ألفينا الطبيبي يضع فرقاً دقيقاً بين نوعين من القصر يحتملها معنى الآية استناداً إلى تحديد نوع المخاطب؛ لذلك قال: «بقوله: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ} معناه: ما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ إِلَّا الْمَيْتَةَ، وَهُوَ قَصْرُ الْحُكْمِ عَلَى الْمَذْكُورَاتِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُمَكِّنُ النَّفْصِيَّ مِنْهُ إِذَا عَيَّنَّا اقْتِضَاءَ الْمَقَامِ، فَإِنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ: زَيْدٌ شَاعِرٌ وَمُنَجِّمٌ، إِذَا قُلْتَ فِي جَوَابِهِ: مَا زَيْدٌ إِلَّا شَاعِرٌ، أَفَادَ الْقَصْرَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ لَيْسَ لَزِيدٍ صِفَةٌ سِوَى الشَّاعِرِيَّةِ، بَلِ الْقَصْرُ عَلَى أَحَدِ الْوَصْفَيْنِ الْمُنْتَازِعِ فِيهِمَا، كَذَلِكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، أَنَّهُ تَعَالَى لِمَا عَمَّ الْخَطَابَ

بقوله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا } البقرة: 168 { وَخَصَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ { ثم عقَّبهما بقوله: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ { الآية، وَجَبَ أَنْ يُقَدَّرَ كَلِمًا مِنَ الْمَخَاطَبِينَ مَا يُنَاسِبُهُ لِيَصِحَّ الرَّدُّ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُرَدَّ عَلَى الْمَشْرِكِينَ تَحْرِيمَهُمْ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ ... وَأَنْ يُرَدَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ تَحْرِيمَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِذِيذِ الْأَطْعَمَةِ وَرَفِيعِ الْمَلَابِسِ ... فَالْتَرَكِيبُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِكِينَ: قَصْرُ قَلْبٍ، وَإِلَى الْمُؤْمِنِينَ قَصْرُ إِفْرَادٍ (الطَّبِيبِي: 2013م: 198/3 - 199). فَهَذَا فَرْقٌ بَيْنَ نَوْعِي الْقَصْرِ بِنَاءٍ عَلَى تَحْدِيدِ نَوْعِ الْمَخَاطَبِ، وَمَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ، وَلَا يُمْكِنُ إِغْفَالُ أَهْمِيَةِ هَذَيْنِ الْعَنْصَرَيْنِ فِي تَعْيِينِ دَلَالَةِ التَّرَكِيبِ وَوَجْهَتِهِ الْحَاجِيَّةِ، فَالْمَقَامُ يَسَاهِمُ فِي تَأْكِيدِ الْقِيَمَةِ الْحَاجِيَّةِ لِلْقَصْرِ، وَالْمَخَاطَبُ يَحْدُدُ وَجْهَتَهَا؛ لِذَا جَعَلَ تَرْكِيبَ الْقَصْرِ مَعَ الْمَشْرِكِينَ مِنْ بَابِ الْقَصْرِ الْقَلْبِيِّ، وَهَذَا النُّوعُ فِي عَرَفِ الْبَلَاغِيِّينَ يَعْنِي: «رَدُّ الْمَخَاطَبِ إِلَى إِثْبَاتِ مَا يَنْفِيهِ، وَنَفْيِ مَا يَثْبِتُهُ مِنَ الْحُكْمِ» (الطَّبِيبِي: 2013م: 79/5)؛ لِأَنَّ الْمَشْرِكِينَ حَرَّمُوا كَثِيرًا مِمَّا أَحَلَّهُ اللَّهُ كَالسَّائِبَةِ، وَالْحَامِ، وَالْوَصِيلَةَ، وَغَيْرَهَا، وَحَلَّلُوا بَعْضَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَقَدْ حَرَّمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا حَلَّلَهُ اللَّهُ، حَذْرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ، لِذَلِكَ جَعَلَ الْقَصْرَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَابِ قَصْرِ الْإِفْرَادِ، وَهَذَا النُّوعُ مِنَ الْقَصْرِ يُوْجِهُ لِمَنْ اعْتَقَدَ الشَّرِكَةَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُقْصُورِ عَلَيْهِ وَغَيْرِهِ (يَنْظُرُ: عَتِيقُ: 2009م: 158/1)، فَلَمْ تَكُنْ غَايَةَ الْقَصْرِ مَعَهُمْ نَفِيًّا لِمَا أُثْبِتُوهُ، أَوْ إِثْبَاتًا لِمَا نَفَوْهُ كَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ الْمَشْرِكِينَ، بَلْ دَفَعُوا مَا تَوَهَّمُوا اشْتِرَاكَهُ فِي الْحُكْمِ، وَهَذِهِ الدَّلَالَاتُ الْمَنْصُوبَةُ تَحْتَ هَذَا التَّرَكِيبِ اسْتَفِيدَتْ مِنْ تَعْيِينِ الْمَخَاطَبِ وَوَجْهَتِهِ مِنَ الْمَعْنَى الْقَضَوِيَّةِ لِلجُمْلَةِ، وَفِي كِلَا الْحَالَيْنِ يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الْقُوَّةِ الْحَاجِيَّةِ الَّتِي يَمْتَلِكُهَا الْقَصْرُ فِي تَحْدِيدِ وَحْصَرِ الْإِمْكَانَاتِ الْحَاجِيَّةِ لِلتَّرَكِيبِ اللَّغْوِيِّ وَتَوْجِيهِهَا نَحْوَ نَتِيجَةِ وَاحِدَةٍ وَذَلِكَ بِالْقَضَاءِ عَلَى تَعَدُّدِ الْاسْتِزَامَاتِ وَالنَّتَائِجِ، فَيُقَوِّمُ بِنَقْلِ الْمَتَلْقَى مِنَ الْغَمُوضِ وَالتَّعَدُّدِ إِلَى وَضُوحِ الْمَقْصِدِ وَوَحْدَةِ النَّتِيجَةِ الْمَتَوَخَّاةِ مِنَ الْمَلْفُوظِ، وَبِذَلِكَ يَنْتَقِلُ بِالْمَلْفُوظِ مِنَ الْإِبْلَاغِيَّةِ إِلَى الْحَاجِيَّةِ (يَنْظُرُ: النَّاجِحُ: 2011م: 35)، وَتَمَثَّلَ ذَلِكَ بِالْإِزَامِ الْمَتَلْقَى الْحُجَّةَ بِتَعْرِيفِهِ أَصْنَافَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ مِنْ دُونِ أَنْ يَدْخُلَ ذَلِكَ الْحُكْمُ احْتِمَالًا أَوْ لَيْسَ يُوْجِهُ فِي الْوَهْمِ.

فالتقبيد الذي يفرضه أسلوب القصر بواسطة أدواته، يضيف على الحجة التي يقدمها المتكلم قوةً وقيمةً حجاجيةً لا تتمتع بها التراكيب التي تخلو منها، لكونه يقيّد احتمالات الملفوظ ويحصرها في اتجاه حجاجي واحد، لصالح نتيجة واحدة، ويزيل جوانب التعدد والاحتمال التي تؤدي إلى اللبس والغموض لدى المخاطب، وهذا ما تبدى لدى الطيبى في بيان معنى قوله تعالى: { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ } النساء: 170-171. { إِذْ قَالَ: } (وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ } إِثْبَاتٌ لِلتَّوْحِيدِ عَلَى الْقَصْرِ، وَتَقْرِيرٌ لَصِفَةِ الْفَرْدَانِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَبْلَغِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: مَا اللَّهُ إِلَّا وَاحِدٌ فَرْدٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى غَيْرُهُ إِلَهًا، وَأَنَّ قَوْلَهُ: { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } إِثْبَاتٌ لَصِفَةِ الْمَالِكِيَّةِ وَالْخَالِقِيَّةِ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ

أيضاً؛ وذلك بتقديم الظرفِ على المبتدأ، وفيه أن ما سواه مملوكُهُ تحت تصرُّفه وتدبيره ومن جملته المسيح والملائكة وكل ما عبد من دون الله، وأنَّ قوله: {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} إثباتٌ لكمالِ قُدْرته على الاختصاص أيضاً...، ثم إنَّه تعالى لما قرَّر الفردانيَّة والمالكيَّة والفُرة التَّامَّة، كلُّ ذلك على الاختصاص- أتبعه قوله: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ} إلى آخر الآيات؛ بياناً وتذييلاً وتقريراً لاستحقاقه العبوديَّة وإنكار أن أحداً يستنكف ويستكبر عن عبادته). (الطبيي: 2013م: 243/5). فالتأمل لنصِّ الطبيي يجد أن هناك ثلاث حجج انتظمت في مسار حجاجي نحو نتيجة واحدة تمثلت بإنكار الاستنكاف عن عبادة الله تعالى من أي مخلوق كان؛ لاستحقاقه العبودية (جلّ وعلا) لما تقدّم له من صفات اختص بها، وهذه الحجج الثلاثة اشتملت على عوامل حجاجية جعلتها توجه كلِّ إمكانات التركيب الحجاجية نحو النتيجة المتمثلة باستحقاق العبادة، وهذا ما يقتضيه المقام، فالمقام مقام الردّ على النصارى الذين جعل بعضهم من عيسى (عليه السلام) إلهاً من دون الله يعبدونه، وبعضهم من اعتقده شريكاً لله، ومنهم من اعتقده ولداً، والخطاب القرآنيّ جاء ليُنكر عليهم اعتقادهم الخاطي، ويردّ زعمهم الكاذب، ويثبت أن عيسى (عليه السلام) عبدٌ من عباده، وهو لا يستنكف عن عبادته ولا الملائكة المقربون الذين كانوا يعتقدون بأفضليتهم، وما هذه الطاعة إلا لاستحقاقه (جلّ وعلا) تلك الطاعة والعبودية، فأفادت (إنّما) إثبات التوحيد وصفة الفردانيَّة على القصر لله وحده من دون ترك أيِّ لوازم ممكنة قد يحتملها المقام، وهنا تكمن فائدة القصر، فالمتلقي -لا سيما المعاند- كلما تعددت اللوازم الممكنة للمفوض كلما حاول التفصي عن المطلوب، وتحجج بتلك اللوازم، فيصعب إقناعه والتأثير فيه، ذلك أنه «لا يفتأ يلجأ إلى القيود السياقية والمقتضيات المقامية والمبادئ الخطابية من أجل استخلاص اللوازم التي تخدم إدراك الفائدة الإخبارية والغرض التواصلي من هذا القول» (عبدالرحمن: 1998م: 90)، وبذلك جاء إثبات التوحيد على القصر رداً وتبكيّاً لمن اعتقد بالمسيح إلهاً، ثم أثبت صفة الملك والخلق له على الاختصاص، ليعلم المخاطب أن عيسى (عليه السلام) مخلوق ومملوك لله (جلّ وعلا) وليس شريكاً له كما يعتقدون، وأتبعهما بكمال القدرة على الاختصاص أيضاً؛ لإلزام المشرك الحجة بأنّه وحده المستقل بنفسه عن غيره، وأنّ غيره غير مستقل بنفسه عنه وكلّ أموره موكولة إليه، فمن كانت هذه صفاته فهو الجدير بالعبادة والطاعة لا من تعتقدون به إلهاً أيّها النصارى، ولا من اعتقد الملائكة من غيركم.

فالملاحظ ممّا تقدّم أنّ القيمة الحجاجية للمفوض إذا تضمن العامل الحجاجي المناسب للسياق والمقام، تكون أعلى من الملفوظات التي تخلو منه، فضلاً عن أنّ هذه العوامل لا يمكن حصرها بكلمات معينة أو صورة واحدة، بل تتعدد صورته ومفرداته، إذ تلمسنا القيمة الحجاجية لأسلوب الاختصاص بالتقديم والتأخير كما تلمسناه بأسلوب القصر، وكذا الحال بالنسبة لما أفاده الفعل (كفى) من معنى الاختصاص بمنح الحجة القوة المناسبة للتأثير في المتلقي.

ذكرنا فيما سبق أنّ الروابط الحجاجية هي عناصر لغوية وظيفتها الربط بين حجتيين أو أكثر جرى سوقهما في إطار الاستراتيجية الحجاجية نفسها، أو بين حجة ونتيجة، وهي تسند لكل قول دوراً محدداً داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة، ولا تتحدد بألفاظ معينة، وما تصلح للربط بين الحجة والنتيجة لا تصلح للربط بين حجة وأخرى، وبذلك فهي روابط مؤسسة للعملية الحجاجية، وهذه الوظيفة الحجاجية لبعض العناصر اللغوية وجدنا لها إشارات دقيقة في حاشية الطيبي، تجعل القارئ يدرك أنّ الكثير من درر التراث العربي ما زالت مندثرة، وبها حاجة إلى البحث والتنقيب ليلمع بريقها للباحثين، ويمكن أن تؤسس عليها نظريات لغوية عربية بطابع حديث، ومن تلك الإشارات ما يتعلق بالرباط الحجاجي (بل)، وهذا الرباط في أدبيات البحث الحجاجي من الروابط التي تختلف فيها الوجهة الحجاجية للنتيجة عن المقدمة، وينتمي إلى فصيلة روابط التعارض الحجاجي، وتستعمل لغرضين هما: الإبطال، والحجاج، والثاني هو موضع عناية البحث الحجاجي، وتكون للحجاج حينما تكون (للإضراب على جهة الترك للانتقال من غرض إلى غرض آخر من غير إبطال) (العزاوي: 2006م: 67)، وهذا الانتقال بين غرضين من دون إبطال قد أشار إليه الطيبي في تفسير قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً } النساء: 49 { إذْ دُونَ أَنْ: (قوله تعالى: (بَلِ اللّٰهُ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ) كلامٌ واردٌ على الإضراب لما سبق، فوجب تنزيل ما قبل كلمة الإضراب على ما يصحّ أن يكون مُضْرَباً عمّا بعدها، وهو إثبات تزكية منهم لأنفسهم لا يُعْتَدُّ بها، كأنهم لما زَكَّوْا أنفسهم ادَّعَوْا أنهم عارفون بأحوال أنفسهم وأنها صالحة للتزكية، لما فيها من الخلال المرضية، وأنهم قادرون أيضاً على استيفاء جميع ما يستحقُّونه من الثواب على ما لأجله زَكَّوْا أنفسهم، وهو العمل والطاعة والتقوى، فردَّ عليهم ذلك بأن قيل لهم: ليس كما تزعمون؛ بل الله هو وحده يُزَكِّي، ولا يُزَكِّي إلا مَنْ يشاء وأرادَه واصطفاه لذلك بأن وفَّقه لقمع رذائل النفس الأمارة، وهذاه إلى الخروج إلى مدارج الكمال ومعارج القدس، وأنه هو وحده قادرٌ على الوفاء بما يستأهلونه من الرُفقى عنده والكرامات، فيؤقِّبهم على النفير والقطمير) (الطيبي: 2013م: 28/5). فالنصّ يشير إلى وجود تعارض حجاجي بين ما يسبق الرباط (بل) وبين ما يتلوه، وأنّ (بل) أدت دوراً وظيفياً داخل النص بالانتقال من غرض إلى غرض آخر من دون إبطال، فضلاً عن أنها أقامت علاقة حجاجية مركبة بين علاقيتين فرعيتين، الأولى تمثلت بالعلاقة بين حجة ظاهرة وهي معرفتهم بأحوال أنفسهم وأنها صالحة للتزكية، ونتيجة مضمرة أنها تستحق استيفاء الثواب لصلاحها، والثانية بين الحجة الواقعة بعد (بل) وهي الحجة الأقوى والأبلغ ومفادها أنّ الله وحده هو من يزكي الأنفس، وهو القادر على هدايتها وبين النتيجة المضمرة المضادة للنتيجة السابقة، وهي أنّ الله هو الذي يوفي تلك

الأُنس أجزها، وهي تمثل أيضاً نتيجة النصِّ برمته؛ لكونها النتيجة المترتبة على الحجة الواقعة بعد (بل)، والحجة التي تقع بعد بل تكون هي الأقوى والأبلغ من الحجة التي تسبق (بل).

وهناك نوع من الروابط الحجاجية تسمى بالروابط المؤسّسة أو روابط التساوق الحجاجي، وهذا النوع لا يربط بين حجة ونتيجة متعارضة، وإنما يربط بين حجة وأخرى، أو بين حجة ونتيجة، ضمن اتجاه حجاجي واحد، وكثير من الأدوات والأسماء في اللّغة العربيّة تضطلع بدور الربط الحجاجي، وسنكتفي بمثال عن الأسماء، وآخر عن حروف المعاني، ومن أهم تلك الأسماء في الخطاب القرآني هي أسماء الإشارة، فقد وجدنا في حاشية الطيبي ما يشير إلى أنّ هذه الأسماء استعملت في الخطاب القرآني رابطاً حجاجياً بين الحجة أو مجموعة الحجج والنتيجة التي تؤدي إليها، وأنها شكّلت ظاهرة حجاجية داخل الخطاب القرآني، فضلاً عن أنّها اقتصرت على الربط بين الحجة والنتيجة ولم تستعمل للربط بين الحجج، ولعلّ ما مرّ بنا في بعض أمثلة مظاهر الحجاج اللّغوي يدلّ على ذلك، ومن الأمثلة التي يمكن الاستعانة بها في هذا الموطن ما ذكره عن (أولئك) في تفسيره لقول المولى (عزّ وجلّ): { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } الانفال 2-4؛ إذ تبدّى له أنّ اسم الإشارة اضطلع بدور وظيفي تمثل بالربط بين ما قبله وبين الوارد بعده المترتب عليه، فقد قال: (بيانه: أنّه تعالى عقّب اسم الإشارة بقوله: (هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)، وبقوله: (لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ)، بعد إجراء الأوصاف الفاضلة على المؤمنين، فيلزم أنّ يكونا حقيين ثابتين للمؤمنين، لاتصافهم بتلك الفضائل، وقد تقرّر أنّ اسم الإشارة في مثل هذا المقام مؤدّن بأنّ ما يرد عقيبها: المذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عُدّت ((الطيبي: 2013م: 17/7).. فالنصّ يشير إلى أنّ الخصال التي ذكرت للمؤمنين جعلتهم مستحقين لوصف المؤمنين حقاً، وللدرجات العلى عند ربهم، فكأنما الخصال مثلت حججاً منتظمة ضمن علاقة حجاجية جاءت لتخدم النتيجة التي وردت بعد اسم الإشارة، واسم الإشارة هو الرابط بين تلك الحجج وبين النتيجة التي أدت إليها.

إنّ تكرّر هذا الدور الوظيفي لأسماء الإشارة داخل النصّ القرآني حمل العلامة الطيبي على وضع قاعدة يُقاس عليها ما يرد من أمثلة أخرى، إذ قال: (لما تقرّر مراراً: أنّ اسم الإشارة في مثل هذا المقام مؤدّن بأنّ ما بعده جديرٌ بمن قبله لأجل اكتسابه موجبه) (الطيبي: 2013م: 135 / 7). (فمراراً) إشارة واضحة إلى تكرّر دور الربط الحجاجي الذي تضطلع به أسماء الإشارة داخل الخطاب، وأنها تجعل ما يرد بعدها نتيجة مترتبة على ما ورد قبلها، ولعلّ هذه الرؤية الوظيفية عند العلامة الطيبي لأسماء الإشارة تجلّت بصورة أكثر وضوحاً في حديثه عن وقوع اسم الإشارة بعد الأوصاف التي ذكرت لله تعالى في قوله: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ هَٰذَا ذَلِكُمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} يونس: 3 { إذ قال: ((إنَّ في اسم الإشارة إشعاراً بأنَّ ما قبله- وهو الله الموصوفُ بكونه ربّاً، خالقاً، مستويّاً على العرش، مدبراً للأمر - حقيقٌ بما بعده؛ وهو أن يُخصَّ بالعبادة، ولا يُشرك فيها غيره)) (الطبيبي: 2013م: 418/7). فكلام الطبيبي ليس به حاجة إلى ليّ عنقه أو التأوّل فيه، بل هو واضح جليّ في بيان الربط الحجاجي الذي قام به اسم الإشارة (ذلكم) داخل الآية الكريمة، وما استحقاق العبادة إلا نتيجة مترتبة على الأوصاف التي اختص بها الله (جلّ وعلا)، فهو الحقيق بالعبادة دون غيره.

أمّا حروف المعاني التي تضطلع بدور الرابط الحجاجي فهي كثيرة ويمكن التمثيل لها بحرف العطف (ثم)، إذ أنّها تؤدي دور الرابط الحجاجي بين حجتين أو أكثر إذا دلّت على العطف بتراخي، شريطة اقتضائها التدرج، وتكون رابطاً بين الحجة والنتيجة إذا استعملت لمعنى الاستبعاد، أو ما تُسمى بـ(ثم) الاستبعاديّة، فقد ذهب الطبيبي إلى أنّ (ثم) أفادت هذا المعنى في قوله تعالى: { أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } الانفال: 1 { وأنّ إفادتها لمعنى الاستبعاد يجعلها تضطلع بدور الرابط الذي يقتضي أنّ تكون الملفوظات التي ترد قبلها مزيلة للشكوك والشبهات عمّا يأتي بعدها، وذلك بقوله: ((وأمّا المعنى والنّظم: فإن لفظة "ثم" الاستبعاديّة في قوله: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) تقتضي أنّ يكون ما قبلها ممّا يُوفى فيه جميع ما يُزيل الشبهة عمّا بعدها من الكفر والعدول عن الحقّ إزالة تامّة، بحيث لا يُبقي معه لأحدٍ مُتمسكٌ يتشبّه به)) (الطبيبي: 2013م: 10/6). فالإشارة إلى الدور الحجاجي الذي قامت به (ثم) في هذا المقام واضحة وصريحة، فضلاً عن الإشارة إلى أنّ ما يرد قبلها يمثل الحجج والأدلة التي يقدّمها منشئ الخطاب لمصلحة ما يرد بعدها، التي تمثل النتيجة لتلك الحجج، وهي تقوم بدور الربط بين تلك الحجج ونتيجتها، وإزالة الشكّ والشبهة هو هدف الخطاب برمته، وهو ما يعرف في أدبيات البحث التداولي بالفعل الناتج عن القول، وهذا يؤكد ما ذكرناه فيما سبق من أنّ نظرية الحجاج اللغوي قامت على ما وصلت إليه نظرية الأفعال الكلاميّة، وإنّها نظريّة مكتملة لنظرية الفعل الكلامي ومنضجةٌ لكثير من أفكارها.

النتائج:

إنّ من أهم النتائج التي توصل إليها البحث ما يأتي:

- 1- إنّ نظرية الحجاج اللغوي قامت على ما وصلت إليه نظرية الأفعال الكلاميّة، وإنّها نظرية مكتملة لنظرية الفعل الكلامي ومنضجةٌ لكثير من أفكارها.
- 2- إنّ دراسة الحجاج اللغوي في التراث العربي بصورة عامة والتراث التفسيري بصورة خاصة يعطي صورة واضحة عن وجود إشارات دقيقة يمكن أن يبتنى عليها نظريات لغوية عربية حديثة على غرار ما جاءت به النظريات الغربية.

- 3- إنَّ مظاهر الحجاج اللغويّ موجودة في التراث التفسيريّ بصورة واضحة وجليّة، ولا بدّ أن يكون البحث عن حاجية لغة القرآن الكريم فيما دونه المفسرون لا في النص القرآنيّ مباشرة لتجنب الخوض فيما ليس من اختصاص الباحثين.
- 4- أثبت البحث أنّ الحجاج موجود في بنية اللغة نفسها، وأنّ المفسرين القدامى أدركوا هذه الخاصية الدقيقة للغة الخطاب القرآنيّ، وقد اشتملت الكثير من الآيات الكريمة على تراكيب قامت بدور الحجج المقدمة لصالح نتيجة تتضمنها إحدى الآيات الكريمة ترد بعدها، أو تكون سابقة لها.
- 5- إنّ القيمة الحجاجيّة لأسلوب القصر تتأتى من كونه قادراً على حصر إمكانات الملفوظ الحجاجيّة وتوجيهها نحو وجهة حجاجيّة واحدة غير قابلة للتأويل مما يجعل تحقق النتائج أكثر إمكاناً، بفضل أدواته التي تعد من أكثر العوامل الحجاجيّة قوة.
- 6- إنّ القيمة الحجاجيّة للملفوظ إذا تضمن العامل الحجاجيّ المناسب للسياق والمقام، تكون اعلى من الملفوظات التي تخلو منه، فضلاً عن أنّ هذه العوامل لا يمكن حصرها بكلمات معينة أو صورة واحدة، بل تتعدد صورها ومفرداتها.
- 7- إنّ الكثير من أسماء الإشارة اضطلعت بدور حجاجيّ داخل الخطاب القرآنيّ، حتى غدت ظاهرة حجاجيّة شائعة في النص الكريم، فضلاً عن أنّها اقتصرت على الربط بين الحجج والنتائج المترتبة عليها دون أن تكون رابطاً ما بين الحجج أنفسها.

القرآن الكريم

مصادر البحث ومراجعته:

- آل صوينت، 2013م: التداوليّة المدمجة بحث في المفهوم، د. مؤيد عبيد، بحث ضمن كتاب انتظام المعرفة اللغويّة، مجموعة أعمال مهداة إلى روح العلامة الدكتور نعمة رحيم العزاوي / اعداد وتنسيق د. مؤيد آل صوينت ود. خالد خليل هويدي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان.
- أوستن، 1991م: نظرية افعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون أوستن، ترجمة: عبد القادر قينيّني، (د.ط)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب.
- بو جادي، 2009م: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم: د. خليفة، ط1، بيت الحكمة، الجزائر.

- تابتي، 2007م: الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي: يمينة، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، ع: 2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- حسيني، 2020م: الحجاج اللغوي بين النظرية والتطبيق آيات من سورة ال عمران انموذجا، د. مختار حسيني، مجلة ضاد، مجلة لسانيات العربية وآدابها، مج: 1، العدد: 2.
- خليفة، دت: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: الحاج خليفة مصطفى بن عبد الله الشهير بـ (كاتب جليبي)، المعروف بـ(حاجي خليفة)، تح: محمد شرف الدين يالتقايا، (د. ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- رشيد، 2004م: الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو: د. الراضي رشيد، مجلة عالم الفكر، ع: 1، مج: 4.
- الزامل، 2020م: حجاجية الروابط والعوامل في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم مقارنة في ضوء التداولية المدمجة، لطيف حاتم، بحث ضمن كتاب الحجاج بين النظرية والتطبيق: إعداد وتقديم د. أبو بكر العزاوي، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد - الأردن.
- زهرة، 2010م: دور الاساليب والروابط اللغوية في العملية الحجاجية من خلال (البيان والتبيين) للجاحظ: أ. بن اعراب، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، ع: 6، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- الشهري، 2004م: عبد الهادي بن ظافر: استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، ط1، دار الكتب الجديدة، بيروت- لبنان.
- طلحة، 2008م: القيمة الحجاجية لأسلوب القصر في اللغة العربية: أ. محمود، جامعة الأغواط، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو - كلية الآداب واللغات - الجزائر، ع: 3.
- الطيّبي، 2013م: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، وهو حاشية الطيّبي على الكشاف: للامام شرف الدين الحسين بن عبدالله (ت743هـ)، مجموعة من المحققين بإشراف د.محمد عبدالرحيم، ط1، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات، دبي- الامارات.
- عبدالرحمن، 1998م: للسان والميزان أو التكوثر العقلي: د. طه عبد الرحمن، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان.
- عتيق، 2009م: علم المعاني، عبدالعزيز (1396 هـ)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت - لبنان، 1430 هـ.

- العزاويّ: 2010م: الخطاب والحجاج: د. أبو بكر، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان.
- العزاويّ، 2006م: اللغة والحجاج: د. أبو بكر، ط1، مطابع العمدة، الدار البيضاء.
- العزاويّ، 2010م: الحجاج في اللغة، د. أبو بكر، بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة: إعداد وتقديم: حافظ إسماعيليّ علوي، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن.
- العزاويّ، 2020م: الحجاج بين النظرية والتطبيق: إعداد وتقديم د. أبو بكر، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد – الاردن.
- العسقلانيّ، 1969م: الدرر الكامنة في أيان المائة الثامنة: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر (852هـ) تح: محمد سيد جاد الحق، ط2، دار الكتب الحديثة، مصر.
- الفلقشنديّ، 1922م: صبح الاعشى في صناعة الانشا: الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد (821هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة – مصر.
- مايير، 2010م: اللغة والمنطق والحجاج، ميشيل، ترجمة محمد أسيداه، بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، اشراف د. حافظ اسماعيليّ علوي، عالم الكتب الحديث، ط1، الاردن.
- المبخوت، (د.ت): نظرية الحجاج في اللغة، من أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى يومنا، شكري المبخوت، إشراف حمودي صمود، كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس.
- محمود، وباليسانى، 2019م، الحجاج البلاغي بين اقناع المتلقي وإلزامه، دراسة في حوارات سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم، الاستاذ الدكتور نشأت علي وم.م. عليا أحمد، مجلة International Legal Issues Conference، th4، 2019م.
- الناجح، 2011م: العوامل الحجاجية في اللغة العربية: د. عز الدين، دار نهى للطباعة، ط1، صفاقس- تونس.
- هجرس: 2013م: القيمة الحجاجية في الخطاب الاشهاريّ موبيليس نجمة جيزي أنموذجاً مقارنة تداولية: صابرة هجرس، رسالة ماجستير، جامعة ام البواقي، كلية الآداب واللغات.
- الولي، 2011م: مدخل إلى الحجاج افلاطون وارسطو وشاييم بيرلمان: د. محمد، مجلة عالم الفكر، ع: 2، مج: 40، الكويت.

